

النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم يومى مذكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله في خلقه وآيته في عبادته ، ولغز الانسانية الذى لم يحل بعد ، وقد لا يحل يوماً ما . هي مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة ، ولكنها لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية ؛ وهي منبع الأفكار الواضحة الجلية ، الا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والابهام . ومع هذا فالإنسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد في تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم يذل قصارى جهده في إدراك كنهها والوقوف على أمرها . وبوده أن يعرف في دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها . وكيف لا وهو طلة يحب أن يعرف كل شيء ، وهو في معرفة الأشياء المجهولة والامور المستترة أرغب . وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة في سبيل فهم الطبيعة ووضح آياتها ففهمه التي بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح ، هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ، ومعرفة لنفسه كثيراً مانعته على تفهم بنى جنسه ، ولم يذل الاخلاقيون والمربون من جهد في تحديد الدعائم النفسية التي يقوم عليها اصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم . والاديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الابدان ، وتوجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام . والثواب والعقاب والمسئولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير في الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن . ففي أحوال الانسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به الناس جميعاً دون أن يروه .

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين في مختلف العصور ؛ وليس ثمت فيلسوف إلا أدلى فيه برأى وتعرض له بالبحث والتحليل ، وربما كان في تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة بأسرها . بيد أن ابن سينا ، فيما نعتقد ، قد غنى به عناية

كبيرة لانجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط . حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس في محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة ؛ وكتاب أرسطو في النفس ومؤلفاته المسماة « بالطبيعات الصغرى » تصعد به إلى مرتبة أسنى عالم نفسى عرف في التاريخ القديم . ولم يغفل أفلوطين أمر النفس في تاسوعات ، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوى واتصالها بالعالم السفلى ورغبتها الدائمة في أن تعود إلى مقرها الأسمى . وللفلسفة القرون الوسطى المسيحية وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة في حقيقة النفس ووظائفها . إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به ابن سينا ، فانه يعود اليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة ، ويتحدث عنه في كل كتبه الرئيسية التي وصلت إلينا . ففي كتاب القانون المعروف بين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم^(١) ، وفي الشفاء يعقد فصلاً مستفيضاً يفصل فيه آراءه النفسية^(٢) ، وفي النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه في قالب مدرسى محكم ، وفي الاشارات ينظم في نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة . وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم^(٣) ولم يقنع بهذا ، بل كتب رسالة قيمة في القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور الساماني ، ورسالة أخرى في معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وشرح هبوطها إلى الجسم وحينها إلى مصدرها الأول في قصيدة مشهورة .^(٤)

كنا نتوقع وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه في دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فيمنى معلوماتنا ويخطو بنا إلى الامام في سبيل هذا البحث الدقيق . ولكنه ، فيما يظهر : كان يعتقد

(١) ابن سينا ، (القانون) ، ١ - ٢٢ - ٢٦ (طبعه رومة)

(٢) (الشفاء) ، ١ - ٢٧٧ - ٢٦٨ .

(٣) (فهرست دار الكتب المصرية) ، فلسفة ، رقم ٢١٤ .

(٤) لا بقوتنا أن نسير إلى رسالة (في القوى الانسانية وإدراكها) مرجوعة في المجموعة المسماة : (تسع رسائل في الحكمة والطبيعات) . وقد أثبتنا من قبل ، وبيننا الدليل القاطع . أن هذه الرسالة من عمل الفارابي

عنها . فقد عقد لعلم النفس السينوي (نسبة إلى ابن سينا) فصلا في كتابه المسمى : *Avicenne* ^(١) . ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع في هذا الموضوع قليلاً في رسالته التي تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه ^(٢) . أما من اشتركوا في نشر مؤلفات ابن سينا السيكولوجية فيجب أن نشير أولاً إلى الدكتور صمويل لانداور الذي نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور الساماني سنة ١٨٧٥ ؛ وقد وفق في عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث العلمي الصحيح ^(٣) . فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول ؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات ابن سينا . وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فديك بعد ذلك بنحو ٣٠ سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة إنجليزية دقيقة ^(٤) . وفي العام الماضي نشر ثابت أفندي الفندي أحد خريجي كلية الآداب ومبعوثها الآن في باريس رسالة أخرى في معرفة النفس الناطقة وأحوالها . ويظهر أن أثر أفكار ابن سينا السيكولوجية في المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخي الفلسفة من قديم . ففي النصف الثاني من القرن الفائت نرى هاننبرج يدرس نظرية المعرفة لدى ابن سينا والبير لجراند ^(٥) . وفي أوائل القرن العشرين كتب فنتز في إحدى صحف مونخ العلمية مقالاً طويلاً عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية ، وهذا الجزء هو الذي يدرس فيه ابن سينا النفس وقواها ^(٦) . وفي سنة ١٩٢٩ وفي المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية المسيحية وأستاذها في كوليج دي فرانس ، هذا الموضوع حقاً من البحث ، وبين أثر ابن سينا في هذا المضمار بما لا يدع مجالاً للشك ^(٧) . وفي اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا

أن الفصل في مشا كل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه ، بدليل أنه يشير في القانون إلى بعض نقط متصلة بالنفس وقواها قد اختلف فيها الأطباء والفلاسفة ، ويصرح بأن الكلمة كلمة الآخرين ، وأن استيفاء هذه النقط إنما يتم في كتبهم ^(٨) . والواقع أن التجارب المنظمة والابحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده ، بل القرنين الآخرين فقط ، وفي وسط طبي حظر فيه التشريح وحرّم من الأدوات الحديثة لم يكن في الامكان دراسة المخ والجهاز العصبي دراسة تجريبية كاملة . ولا نكاد نحظى بإحاث بين المسلمين لهذا المنحى التجريبي فيما وراء ابن الهيثم الذي أدلى بأراه في الضوء . والرؤية تقترب مما جاء به فيبير (Weber) حديثاً ^(٩) . وأما ما يذهب إليه ابن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فسيولوجية شتى فهو ترديد لما قال به أطباء وفلاسفة اليونان . فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلاطون أفاد منه كثيراً وعول عليه التحويل كله . وإليه يرجع الفضل في عرض هذا التراث في صورة واضحة مهيبة لم نهدها عند سابقه ، وإذا كان قد فاته أن يتوسع في دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فإنه لم يفته أن يفتن في البرهنة على وجود النفس وخلودها افتناناً يستلفت النظر ويستحق التقدير . ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافيزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه في كل أبحاثه النفسية .

وبالرغم من أن ابن سينا عالة على السابقين في أغلب آرائه المتعلقة بالنفس وأحوالها فإنه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم في القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث ، فكانت عماد علم النفس جميعه في العالم العربي منذ القرن العاشر الميلادي إلى آخريات القرن التاسع عشر ؛ وخلفت آثاراً واضحة في الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية ؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت في حقيقة النفس ووجودها . وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها في المدارس الغربية . وربما يكون البادرون كارادي فومن أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة

(١) Carra de Vaux, (Avicenne), P. 207-238.

(٢) Saliba, (Etude sur la métaphysique d'Avicenne), Paris, 1926, P. 185 et suiv.

(٣) S Landauer, (Die Psychologie des Ibn Sina), Z. D. M. G. 1896.

(٤) مبحث عن القوى النفسية ، نشر فديك ، القاهرة ١٩٢٥ هـ .

(٥) B. Haneberg, (Zur Erkenntnislehre von Ibn Sina und Albertus), München, 1866.

(٦) M. Winter, (Über Avicennas opus egregium de Anima, München, 1903.

(٧) Er. Gilson, (Archives d'his), t- IV 1929, P. 38-74.

(٨) ابن سينا ، (القانون) ، ١ - ص ٢٥ .

(٩) De Boer, (Encyc. of Ethics), Soul.